جنازة ملكة الانكليز

ذكرنا في الجزء الماضي نعيَ هذه الملكة الجليلة وطرَفًا من تاريخها وكلامًا وجيزًا عن ارتقاء بلادها في عهدها . وقد رأينا ان نتمم ذلك الآن بوصف ما كان من الاحتفال بدفنها وبما شهد بهِ اكبر رجال الدين في البلاد الانكليزية وقت الصلاة عليها لان فيهِ عبرةً للملوك الارض وكشفًا لسر النجاح الذي نجحهُ شعبها في عصرها فنقول

توفيت الملكة في قصر اسبُرن بجزيرة ويط وهي جزيرة صغيرة جنوبي البلاد الانكليزية فتُركت فيها الى غرّة فبراير حتى تمّ الاستعداد للاحتفال بدفنها ووصل الملوك والامراء الذين وفدوا من الاقطار الشاسعة لتشييع موكب الجنازة . وفي غرة فبراير وضع النعش على مركبة مدفع تجرُّها ثمانية من الجياد وأُلقي عليهِ الرداء الذي ارتدتهُ حين مبحها ووضع عليهِ الصولجان وكانت جواهرهُ تتألق في شعاع الشمس لان السماء صحت في ذلك اليوم على خلاف العادة وبزغت اشعتها تلطف برد الشتاء . ومشى وراء النعش ابنها الملك ادورد السابع واخوهُ دوق كنوت وابن بنتها امبراطور المانيا ووراءهم ولي عهد المانيا وعمهُ البرنس هنري والبرنس كرستيان ودوق سكس كوبرج والبرنس ارثر بن دوق كنوت والبرنس تشارلس الدنماركي والبرنس لويس باتنبرج . ووراءهم الملكة الكسندرا وثمان من الاميرات مشين ثلاثًا ثلاثًا ثم الحرس الملكي وحاشية الملك والامبراطور . حتى اذا وصل النعش الى مرفإ كوس في تلك الجزيرة نُقل الى اليخت البرنا ووضع تحت قبة من المخمل الارجواني نصبت لهُ فيهِ وكان البحر رهوًا كأن امواجهُ هجعت هيبةً ووقارًا . وسار اليخت الساعة الثالثة بعد الظهر بين صفوف البوارج الانكليزية والاجنبية التي اجتمعت هناك لتحيتهِ في سيرهِ بينها لان الملكة رغبت في ان يكون الاحتفال بدفنها برًّا وبحرًا معًا . وكانت البوارج تقابلهُ باطلاق المدافع والانغام الموسيقية المحزنة وهو يسير بينها وئيدًا وامامهُ ثمان من طرّادات التربيد ووراءهُ اليخت فكتوريا والبرت يقلُّ الملك والامبراطور وغيرهما من الحزانى الذين من بيت الملك الى ان بلغ مرفأ بورتسموث فقابلتهُ السفن التي فيهِ والحصون التي حولهُ باطلاق المدافع . وكان اعضاء مجلس الاعيان ومجلس النواب قد حضروا هم ونساؤهم باربعة قطرات خاصة ونزلوا في سفينتين وقفتا بهم بين البوارج التي مرَّ اليخت بينها . وبات النعش في اليخت تلك الليلة

وفي صباح اليوم الثاني وهو الثاني من فبراير صُلّي على النعش في اليخت وانزل الى البر وأُتي بهِ الى مدينة لندن في قطار ملكي ودخلها من محطة فكتوريا وسير بهِ فيها بين ملايين كثيرة

من شعبها الآسف على وفاتها . ويقال انهُ لم يجتمع حشد مثل ذلك الحشد في زمن من ازمان الدهر ولا في مدينة لندن اكبر مدائن الارض لكن الجماهير وقفت على الجانبين خاشعة كأنَّ على رؤوسها الطير فلم يحدث شيء يخل بالنظام . وبلغ الموكب غاية ما يتصوَّرهُ العقل من العظمة والفخامة والمهابة والجلال فسار في مقدمتهِ عدد عظيم من الجنود الانكليزية من كل انواعها وصفوفها من المشاة والفرسان والمدفعية وهي اكثر من خمسين نوعاً مختلفاً ثم جمهور من قواد الجيش ووراءهم الجنرال السر رتشرد هريسن والجنرال السر افلن وود ووراءهما القائد العام لورد روبرتس ثم اجواق الموسيقى وكبار رجال البلاط وحاشية الملكة ثم النعش حولهُ فرق الحرس الخاص ووراءهُ اللواء الملكي ثم الملك وعن يمينهِ امبراطور المانيا وعن يسارهِ دوق كنوت ووراءهم ملك البرتغال وملك اليونان ثم دوق هس والبرنس كرستيان والبرنس هنري الروسي وثلاثة وثلاثون اميراً ساروا ثلاثة ثلاثة ثم مركبة الملكة وبناتها ومركبة ملك البلجيك وبنات الملكة المتوفاة واربع مركبات اخرى لغيرهنَّ من الاميرات حتى اذا بلغ هذا الموكب محطة بادنجتون كان بانتظارهِ قطار الملكة الخاص الذي صُنع لها وقت يوبيلها الاخير سنة ١٨٩٧ فوضع النعش على منصة في مركبة الملكة وركبهُ الملك والامبراطور وسائر المشيعين فسار بهم الى قصر وندزور حتى اذا بلغ المحطة سار الموكب على الترتيب المتقدم فسار اولاً الحرس الخاص واركان الحرب وقائد الجيش العام ثم النعش يحفُّ بهِ الحرس ووراءهُ الملك والامبراطور ودوق كنوت وملك البرتغال وملك اليونان والامراء الذين اشرنا اليهم قبلاً ثم سفراء الدول التي لم يحضر امراءها الاحتفال وقد ساروا على هذا الترتيب سفير تركيا اولاً ثم سفير فرنسا فالولايات المتحدة الاميركية فاسبانيا فايران وهلمَّ جرًّا

ووضع النعش في كنيسة القصر على منصة مجلَّلة بالارجوان وقام بصلاة الجنازة رئيس اساقفة كنتربري واسقف ونشستر ثم وقف المنادي وقال لقد اقتضت مشيئة الله القدير ان تأخذ من هذه الحياة الزائلة الى رحمتها الالهية المرحومة الملكة فكتوريا الفائقة العظمة والسمو ملكة المملكتين المتحدتين بريطانيا العظمى وارلندا بنعمة الله حامية الايمان امبراطورة الهند فلنطلب بانضاع من العزَّة الالهية ان تنعم بالعمر الطويل والصحة والكرامة وكل سعادة زمنية على ملكنا القدير العظيم ادورد الذي صار الآن بنعمة الله ملك المملكتين المتحدتين بريطانيا العظمى وارلندا حامي الايمان امبراطور الهند . ليحيَ الملك

ثم رتَّل المرتلون طويل الاموات وأُعطيت البركة . وهكذا تمَّ للاحتفال الرسمي بجنازة الملكة . ويوم الاثنين في الرابع من الشهر نقل التابوت باحتفال عظيم سار فيهِ الملك والملكة

والامبراطور وغيرهم من الامراء الى المدفن الذي دفن فيهِ زوج الملكة وهو بناء كبير في شكل صليب تعلوهُ قبة مثمنة وقد كتب على اساسهِ بالانكليزية ما ترجمتهُ " انشأت الملكة فكتوريا اساس هذا البناء تذكارًا تقويًا لزوجها العظيم الصالح الذي دفنتهُ هنا في ١٥ مارس سنة ١٨٦٢ طوبى للذين يرقدون في الرب " . وفوق الباب لوح من النحاس كتبت فيهِ باللاتينية انها تودُّ ان تدفن هناك

وداخل المدفن كنيسة صغيرة كانت مزدانة بالازهار البيضاء والسجوف الارجوانية فاقيمت الخدمة الدينية فيها ووضعت الجثة في المكان المعد لها وعاد الذين جاؤوا معها من غير احتفال وهطلت الامطار حينئذٍ ووقعت الثلوج واشتدَّ الظلام رويدًا رويدًا . في ذلك المدفن دفن الانكليز املهم وملكتهم وستبقى انظارهم متجهة اليهِ ابد الدهر لان فيهِ رفات من عرفت كيف تسوس شعبها وتوردهُ موارد الفلاح

وقد اشترك المسيحيون عمومًا والبروتستانت منهم خصوصًا في تجهيز الملكة في كل اقطار المسكونة وأبَّنها الوعاظ في الكنائس وعدَّدوا فضائلها وفواضلها وحثوا شعبهم على الاقتداء بها وشاركهم الاسرائيليون في ذلك وذكر اكبر ايمة الدين المسيحي عند الشعب الانكليزي وهو رئيس اساقفة كنتربري كلامًا في تأبينها يحسن ايرادهُ هنا قال

كنا نعلم أن جمهورًا عظيمًا من الناس يقولون ان وجود الملك الدستوري ضرب من المحال لانهُ اذا كان هناك مشيئتان — مشيئة الملك ومشيئة الرعية فلا بدَّ من اختلافهما في امر من الامور كما هو طابع البشر وليس فوقهما مشيئة ثالثة توفق بينهما عند وقوع ذلك الاختلاف فحينئذٍ اذا غلبت مشيئة الملك الدستوري مشيئة رعيتهِ فهو ملك مطلق لا ملك دستوري لانهُ يتعرَّض لحرية شعبهِ ويجري على غير مشيئتهم . واذا غلبت مشيئة الرعية مشيئة الملك كان الملك كالانسان بلا ارادة او كالاسم بلا مسمًّى فهو ملك اسمًا ولا شيء فعلاً . على ان المرحومة الملكة فكتوريا حلت هذا المشكل حلاًّ جليًّا واعلمت الناس كيف يكون الملك الدستوري لانها جعلت همها معرفة كل امر يهم رعاياها والعلم بكل ما ينفع شعبها و يعود بالخير عليهم فكانت تنعب النهار والليل لتعرف كل ما يتعلق بهم وما يضرهم وما ينفعهم . ومتى احاطت علمًا بذلك كله تبني رأيها على علمها هذا في كل امر يعرض عليها

ثم انها كانت تعلم ان شعبها حرٌّ وان حريتهم هذه تقتضي ان يسوسهم الذين انتخبوهم هم لسياستهم وان الوزراء الذين يجرون كل ما يقرُّ الرأي على اجرائهِ هم النائبون عنهم . فكانت كلما عرض امر من الامور تستعد لهُ في البحث عن نفعهِ وضررهِ والاحاطة بوجوه الصواب

والخطاء فيهِ ثم تبدي رأيها فيهِ لوزرائها مقرونًا بمشورتها . وتفصح لهم عن ذلك كلهِ بكلام جلي قوي الحجة حتى يفهموا مشورتها والباعث لها عليها وتباحثهم وتجادلهم في المسائل بثبة اقوالها على معارفها وعلى رغبتها في خير رعيتها وتجتهد في اقناعهم بصحة رأيها وقبول مشورتها اذا اختلف رأيها عن رأيهم ولكنها لا تتعدى في ذلك كلهِ حدًّا من الحدود المعينة لها في دستور بلادها . فاذا لم تستطع اقناعهم بقبول رأيها اذعنت لرأيهم مراعية في ذلك خير رعيتها لاعتقادها انهُ خير للرعية ان يحكمها ويسوسها الذين انتخبتهم الرعية نفسها لسياستها وتدبير امورها ولانها كانت تعتقد انهُ ولو كان رأيها صوابًا ورأي وزرائها خطاء فخير للرعية ان يكون الرأي النافذ الرأي المطابق لحريتها اي رأي الذين اختارتهم الرعية نوابًا ووكلاء عنها لا الرأي الذي يكون في مسألة من المسائل انفع لرعاياها ولكنهُ غير مطابق لشروط حريتهم . وكانت تعتقد انهُ خير للرعية اذا وقع خطاء ان يكون وقوعهُ من الوزراء نوابها لا من الشخص المالك عليها

فحرية رعيتها كانت دائمًا نصب عينيها وكانت مقدسة محترمة عندها ولذلك كانت تسلم للذين اقامتهم الرعية نوابًا ولو كانت مقتنعة بان رأيهم خطاء تقديمًا لحرية الرعية على كل ما سواها لعلمها ان الامة الحرة تسوس نفسها بنفسها في آخر الامر احسن مما يسوسها اعقل انسان في العالم . وان هذه الحرية هي مصدر كل نجاح حقيقي وكل ربح ونفع صحيح . وان هذه الحرية فتية ثمينة قد تفضي الى خطاء في السياسة احيانًا والى عواقب وخيمة احيانًا اخرى ولكنها تبقى افضل كثيرًا من القسر والاكراه ولو على الخير والنفع في مسألة من المسائل

فكان ملكها بذلك داخل حدود الدستور تُصدق وزراءها دائمًا وتفصح لهم عن آرائها وتصرح لهم بما تفضلهُ على غيرهِ ولكنها تراعي حرية رعيتها فوق ذلك كلهِ . فهذا مقام الملك الدستوري الحقيقي وقد ثبت جليًّا انهُ واقعي حقيقي خلافًا للذين يقولون انهُ محال

فقد حلَّت تلك المشكلة وعلمت رجال السياسة فائدة الملك الدستوري . ولما رأى وزراؤها انها كانت اقدر منهم على ادراك مصير الامور بزكانتها . ومنها كان الملك الدستوري قويًا حكيمًا عظيمًا لا يستطيع ان يستوفي شروط السلطة ما لم يحترم حرية الذين يتسلط عليهم ويتولاهم حسبما يشاؤون لكي تحفظ لهم حريتهم . انتهى

هذا وقد كان لتعي الملكة الوقع الاليم في القطر المصري فاقبل الجناب الخديوي على الوكالة البريطانية للقيام بالتعزية واوفد دولة اخيهِ البرنس محمد علي الى البلاد الانكليزية نائبًا عنهُ واقيمت الصلوات في كنائس البروتستانت والاقباط واليهود فحضرها جناب اللورد كرومر ونظار الحكومة المصرية